الباب الحادي عشر: في الفصل والوصل

تمهيد في قة مسلكه وعظيم خطره

...

الباب الحادي: عشر في الفصل والوصل

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

تمهيد في دقة مسلكه وعظيم خطره:

الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف أو الاستئناف والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند الحاجة إليها، وذلك صعب المسلك لطيف المغزى كثير الفائدة غامض السر لا يوفق للصواب فيه إلا من أوتي حظا من حسن الذوق وطبع على البلاغة ورزق بصيرة نقادة في إدراك محاسنها, ولصعوبة ذلك جعل حدا للبلاغة, ألا ترى إلى بعض البلغاء وقد سئل عن البلاغة فقال: "هي معرفة الفصل والوصل"، فجعل ما سواه تبعا ومفتقرا إليه, وليس بالخفي أنه لم يرد بذلك إلا التنبيه على غموضه وجليل خطره وأن أحدًا لا يكمل في معرفته إلا كمل في سائر فنونها، فإن سبك الكلام وقوة أسره وشدة تلاحم أجزائه تحتاج إلى صانع صنع وحاذق ماهر يبين بين أقسام الجمل التي تفصل والتي توصل, فيرى الفرق واضحا بين جملتين تمتزجان حد الامتزاج, حتى كأن إحداهما الأخرى وجملتين لا تناسب بينهما1 فإحداهما مشئمة2 والأخرى معرقة، وجملتين هما وسط بين الأمرين فيحكم بوجوب الفصل في النوعين الأولين والوصل في النوع الثالث، واعتبر ذلك بما تراهم قد أجمعوا عليه من النعي على أبي تمام وهو ما هو، في قرص الشعر، ورفيع المنزلة، ورفيع المنزلة، في صياغة الكلام، في قوله يمدح أبا الحسين محمد الهيثم:

زعمت هواك عفا الغداة كما ... عفت منها طلول باللوى ورسوم

لا والذي هو عالم أن النوى ... صبر وأن أبا الحسين كريم3

إذا قد وصل "وأن أبا الحسين كريم" بما قبله ولا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى، ولا تعليق لأحدهما بالآخر، إذ لا يقتضي الحديث، بهذا الحديث، بذلك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1 المراد بذلك شدة التباين بينهما.

2 أي: ناحية في الشام.

1 زعمت: أي: محبوبته، عفا: درس وزالت معالمه، والطلول جمع طلل آثار الديار التي هجرها أهلها، والصبر ثم شجر مر, والخطاب في هواك للنفس، وجواب القسم ما ذكره في البيت بعده:

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت ... نفسي على إلف سواك تحرم

المبحث الأول: في وصل المفردات وفصلها

البحث في وصل الجمل وفصلها لا يتضح إلا إذا سبقه الكلام على وصل المفردات وفصلها، وبيان هذا أن عطف مفرد على آخر يستفاد منه مشاركة الثاني للأول في إعرابه من رفع، ونصب، وجر، ولكن الأكثر في الصفات ألا يعطف بعضها على بعض، نحو: جاء محمد العاقل الفاضل الكريم، وسر هذا أن الصفة جارية مجرى موصوفها، فهي تدل على ذات لها تلك الصفة، ومن ثم يمتنع عطفها على موصوفها، فلا يجوز: جاءني محمد والكريم، على أن الكريم هو محمد؛ لأنه لا يصح عطف الشيء على نفسه، وجاء قليلا عطف بعضها على بعض باعتبار المعاني الدالة عليها، فنقول: نظرت إلى علي الفاضل، والمؤدب والكريم، كأنك قلت: نظرت إلى من اتصف بالفضل والأدب والكرم، وعلى ذلك جاء قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

المبحث الثاني: في وصل الجمل

وصل الجمل عطف بعضها على بعض بالواو، أو إحدى أخواتها، وفائدته تشريك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، ومن حروف العطف ما يفيد العطف فحسب، وهو الواو، ولذا قد تخفى الحاجة إليها فلا يدركها إلا من أوتي حظا من حسن الذوق، ومنها ما يفيد مع التشريك معان أخرى كالترتيب من غير تراخ في الفاء، وهو مع التراخي في ثم، وهكذا، ومن أجل ذلك لا يقع اشتباه في استعمال ما عدا الواو، ولذا لا يبحث هنا إلا عنها.

والجمل المعطوف بعضها على بعض ضربان:

1- أن يكون للجملة المعطوف عليها موضع من الإعراب، وحكم هذه حكم المفرد؛ لأنها لا تكون كذلك حتى تكون واقعة موقعه، وحينئذ يكون وجه الحاجة فيها إلى الواو ظاهرا، والإشراك بها في الحكم موجودا، فإذا قلت: نظرت إلى رجل خلقه حسن، وخلقه قبيح، كنت قد أشركت الثانية في حكم الأولى، وهو كونها في موضع جر صفة للنكرة، ونظائر ذلك كثيرة، وخطبها يسير.

2- ألا يكون لها موضع من الإعراب، وتحت هذه نوعان:

أ- أن تتفق1 الجملتان خبرا وإنشاء، وتكون بينهما مناسبة وجامع يصحح العطف مع عدم المانع، نحو: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} 2 ونحو: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا} ويسمى ذلك توسطا بين الكمالين.

ب- أن تختلف الجملتان خبرا وإنشاء، لكن لو ترك العطف لأوهم خلاف المقصود، كما تقول: لا وشفاه الله، جوابا لمن سألك: هل أبل محمد من مرضه؟

فترك الواو حينئذ يوهم الدعاء عليه مع أن المقصود الدعاء له، وقد روي أن هارون الرشيد سأل وزيره عن شيء فقال: لا وأيد الله الخليفة. فلما بلغ ذلك الصاحب ابن عباد قال: هذه الواو أحسن من الواوات في خدود الملاح.

وقد ذكر صاحب المغرب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر برجل في يده ثوب، فقال له الصديق: أتبيع هذا؟ فقال: لا يرحمك الله، فقال له: لا تقل هكذا وقل لا ويرحمك الله.

ويسمى ذلك كمال الانقطاع مع إيهام خلاف المراد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1 المدار في ذلك على اتفاقهما خبرا وإنشاء في المعنى، سواء كانتا خبريتين لفظا ومعنى، أو خبرتين معنى لا لفظا أو الأولى خبرية معنى لا لفظا أو بالعكس أو إنشائيتين لفظا ومعنى أو معنى لا لفظا أو الأولى خبرية لفظا والثانية إنشائية أو بالعكس.

2 سورة الانفطار الآية: 14.